جدليــة الحيــاة والمــوت وجدليــة الانســان والبيئــة

العنــف... ليــس فقــط فــي ام الفحــم

http://www.arabpsynet.com/Documents/DocEgbariahViolence.pdf

دكتور عبد الناصر فوزي اغبارية
Child and adolescent psychiatrist
Belgique-Luxembourg
dregbariah@msn.com

انه من الاكيد رفض العنف مهما تعددت اشكاله وطرق ممارسته وان كان ذالك من العنف الاخلاقي والكلامي مرورا بالعنف الجسدي والجنسي وصولا الى العنف بقتل الاخر معنويا و/او جسديا.

وتعاني كل المجتمعات في العالم من ظاهرة العنف هذا وان اختلفت نسبتها وامتداداتها من مجتمع لآخر

اللا ان فهم "جذور العنف" ومصادر نموه وطرق معالجته هو العمل الأساسي في اي مجتمع كان .

هل تكمن" غريزة العنف" في الانسان، في كل إنسان كما كتب فرويد في نظرياته في علم النفس ؟

ينمو الانسان ويتطور جسديا ونفسيا من خلال العلاقات والتفاعلات المستمرة بين طبيعته وغرائزه (nature)وبين البيئة والحضارة (culture) في كل أشكال طيفها من ثقافة وفنون ونشاطات اجتماعية التي يعيش فيها منذ الولادة والتي يتم من خلالها وبواسطتها صقل تلك الغرائز الطبيعية وتحديد مسارها الاجتماعي والانساني وتحديد سلوك الشخص تجاه نفسه وتجاه الاخر. واننا نستطيع القول كما هو معروف في الطب النفسي اليوم بان البيئة التي يعيش فيها الانسان تبدأ في بيت الرحم وتستمر في خلال فترة الحمل حيث يعيش الجنين كل ما تعيشه أمه من تغيرات عاطفية وبيولوجية . وذالك فان وضع الام الحامل الجسدي والنفسي هو بعلاقة مباشرة بما يكون لاحقا الحالة والصحة الجسدية والنفسية للمولود الجديد..وهنا تكمن ايضا أهمية البيئة العائلية العاطفية وليس فقط المادية التي تعيش فيها الامرأة الحامل والتي يترعرع فيها فيما بعد الرضيع والطفل والشاب والإنسان بشكل عام .

وكما كتب فرويد فان طبيعة الانسان تتمركز حول قوتين متناقضتين في الاتجاه وفي النتيجة وهذا ما سماه "غريزة او دافع الموت" (la pulsion de mort) "وغريزة او دافع الحياة (la pulsion de vie)". اما "غريزة الحياة" فتأخذ أشكالا مختلفة في ترجمتها العملية والسلوكية والتي تظهر في كافة العلاقات الانسانية مثل الحب، السلام، مساعدة الغير، قبول الاخر مهما اختلفت آراؤه او جنسه او لونه او جيله او وضعه الصحي والجسدي وووووو. وكذالك فان "غريزة او قوة الموت" تأخذ أشكالا مختلفة وتترجم سلوكيا بتصرفات تجاه الذات او تجاه الاخر مثل العنف، الانتحار، القتل، الحرب، التخريب بكل أنواعه ، رفض الاخر، تحطيم الاخر بواسطة السلطة الدكتاتورية والقمع ووووووو.....

اما البيئة التي يعيش فيها الانسان فقد تختلف المجتمعات والحضارات في طرقها المتنوعة في خلق الأُطر والعادات والطقوس والعبادات والديانات من اجل "ترويض" الانسان وتحويل "غريزة الموت او

ينمو الانسان ويتطور جسديا ونفسيا من خلال العلاقات والتفاعلات المستمرة بين طبيعته وغرائزه (nature) وبين البيئة والحضارة (culture) في كل أشكال طيفها من ثقافة وفنون ونشاطات اجتماعية التي يعيش فيها

ان البيئة التي يعيش فيها الانسان تبدأ في بيت الرحم وتستمر في خلال فترة الحمل حيث يعيش الجنين كل ما تعيشه أمه من تغيرات عاطفية وبيولوجية

ان وضع الام الحامل الجسدي والنفسي هو بعلاقة مباشرة بما يكون لاحقا الحالة والصحة الجسدية والنفسية للمولود الجديد

اما "غريزة الحياة" فتأخذ أشكالا مختلفة في ترجمتها

الشر" فيه الى علاقات إيجابية في معاملة الاخر وبالاشتراك معه من اجل بنا مجتمع يسوده الاحترام المتبادل وتعلوه الطرق السلمية والعقلانية في الحوار والنقاش ووجود الحلول المقبولة انسانيا من اجل التغلب على الخلافات والمشاكل الحياتية اليومية والمستقبلية .

وتشكل العلاقات العاطفية الإيجابية تجاه الاخر الارضيّة الاساسية في خلق حب الذات وحب الاخر وحب الحياة كما بين ذالك اثناء الحرب العالمية الثانية ومن خلال معالجاته للأطفال في مراكز حماية الأطفال في إنجلترا طبيب النفس الانجليزي René Spitz حَيْث كان اغلب الأطفال يعانون من مشاكل نفسية من الاكتئاب Dépression وأكد Spitz بانه مع ان كل الظروف المادية كانت متوفرة بشكل جيد للعناية بالاطفال اللا ان المشكلة كانت تمكث في عدم توفير العلاقات العاطفية بين العاملين على رعاية الأطفال والأطفال والتي هي اساسية من اجل نمو الطفل ومن اجل نمو الحياة ومحبة الذات والآخر عند الطفل وقد سمى هذه الظاهرة ب hospitalismوهي حالة شديدة من الاكتئاب والتي تودي الى موت الطفل. وفي نفس الفترة ايظا كان قد بين الطبيب الانجليزي .D.W Winnicottفي كتابه " Deprivation and Delinquency "أهمية العلاقة العاطفية في مراحل النمو الاولى في حياة الطفل والتي ان لم تتوفر قد تودي الى سلوك العنف والجنوح الاجتماعي.

وهذا ما يؤكده ايضا الطبيب الفرنسي Boris Cyrulnik في كتابه "la nourriture affective " حيث يُبين أهمية ما يسميه "بالغذاء العاطفي" من اجل نمو الطفل السليم وحاجته الاساسية من اجل خلق العلاقات الاجتماعية والإنسانية الإيجابية والتي تترجم بحب الذات وحب الاخر وحب المجتمع والبيئة.

اما البيئة التي يعيش ويترعرع فيها الطفل فتبدأ في البيت وتكتمل في المدرسة والعمل والشارع والمجتمع بشكل عام. فالعنف الزوجي والعنف تجاه الأطفال وعدم احترام المرأة وعدم احترام الطفل وان كان ذالك تحت غطاء تربوي او ديني او حضاري تودي جميعها الى نمو" غريزة الموت او الشر" كما ذكر أعلاه والتي تصبح الطريقة الاساسية التي يستعملها الطفل والشخص عامة في علاقاته مع ذاته ومع الاخر ومع البيئة عامة. وتكون الطريق الوحيد الذي يلجأ اليه الشخص من اجل حل اي خلاف كان مع الاخر ومع المجتمع الذي يعيش فيه.اما أهمية وجود واحترام القواعد الاخلاقية والتربوية العائلية والاجتماعية ودور الأب والام والمعلم والموظف وكل إنسان في ممارستها واحترامها وتطبيقها هي أهمية قصوى و تشكل المرجعية الاساسية والنموذج الذي يقتدي به الطفل والشاب في سلوكه في كل مجالات الحياة .

ولعله من المهم ايضا التذكير بالعواقب الوخيمة التي تودي بها المعاملة العنيفة والسيئة للطفل في بيئته اليومية في البيت وفي المدرسة وفي المجتمع عامة. وقد بينت عالمة النفس Alice Miller في كتابها "for your own Good" بان العنف تجاه الأطفال يتقنع في اغلب المجتمعات خلف قناع التربية وتحت مقولة" هذا من اجل مصلحتك" الامر الذي يودي الى زرع العنف والشر عند الطفل والذي يحدد الكثير من علاقاته لاحقا مع الاخر والمجتمع عامة. وقد بينت خلال كتاباتها ابعد ما قد يصل اليه الانسان من عنف وقتل وكراهية للاخر شرحا واسع لقضية الطفل Adolphe Hitler واهمية العنف البيتي والمعاملة السيئة التي كان قد تربى عليها والتي كانت احد أسباب ولعلها أهمها في بنا شخصية المجرم النازي وكراهيته الابادية للاخر.

العملية والسلوكية والتي تظهر في كافة العلاقات الانسانية مثل الحب، السلام، مساعدة الغير، قبول الاخر مهما اختلفت آراؤه او جنسه او لونه او جيله او وضعه الصحي والجسدي

كذالك فان "غريزة او قوة الموت" تأخذ أشكالا مختلفة وتترجم سلوكيا بتصرفات تجاه الذات او تجاه الاخر مثل العنف، الانتحار، القتل، الحرب، التخريب بكل أنواعه ، رفض الاخر، تحطيم الاخر بواسطة السلطة الدكتاتورية والقمع

تشكل العلاقات العاطفية الإيجابية تجاه الاخر الارضيّة الاساسية في خلق حب الذات وحب الاخر وحب الحياة

أهمية العلاقة العاطفية في مراحل النمو الاولى في حياة الطفل والتي ان لم تتوفر قد تودي الى سلوك العنف والجنوح الاجتماعي

العنف الزوجي والعنف تجاه الأطفال وعدم احترام المرأة وعدم احترام الطفل وان كان ذالك تحت غطاء تربوي او ديني او حضاري تودي جميعها الى نمو"

فنعمل ضد العنف والقتل في كل مكان وزمان . الا انه من المهم ايضا اعتبار ، في ام الفحم كما هو الحال في كل المجتمع الفلسطيني ، ان عوامل العنف والقتل والهدم والدمار لا يمكن تلخيصها فقط بأسباب سياسية كما اعتدناه دوما وإنما لعله من الواجب ان نذهب معا وبنفس طويل المدى ابعد من ذالك من اجل خوض تحليل اجتماعي واقتصادي وسياسي ونفسي وانساني من اجل فهم "جذور العنف" ومحاولة التغلب على ظواهر العنف في اشكالها المختلفة.

خطوات عملية أولى في مشروع " ضد العنف...."

انعقاد الموتمر القطري الاول تحت رعاية بلدية ام الفحم حول" العنف : نظرة شاملة لفهم اسبابه وطرق علاجه".

خلق موسسات او تفعيلها:

-جمعية حماية الطفل: .. وقد يكون من الممكن طلب ميزانيات خاصة من اجل خلق فرق مختصة في كل مدرسة مكونة من عاملة اجتماعي وأخصائي في علم النفس والتي تكون باتصال مباشر مع الطلاب وان تكون عنوان واطار يرجع اليه كل طالب في حالة تعرضه للعنف في إطار البيت او المدرسة وبحالة وجود اي شك حول تعرض الطفل الى اي نوع من العنف التوجه للجمعية المتخصصة في حماية الطفل والتي ممكن تشكيلها من طواقم مركبة ايضا من أخصائي في القانون وعامل اجتماعي وأخصائي نفس وطبيب نفس او حتى طبيب عام....

-جمعية حماية المرأة: ... الخروج من الصمت والإعلان عن اي حالة عنف تتعرض لها امرأة في البيت او العمل او الشارع ودراستها بشكل قانوني وإعطاء المساعدات الاجتماعية للمرأة او العائلة وإجبار الشخص المعتدي ان كان الزوج او الأب او الاخ او الزميل في العمل الى الذهاب الى العلاج النفسي بقرار من القضاء...

-بداية خلق ورشات عمل تثقيفية: من اجل شرح وكشف للناس عامة و بشكل بسيط جميع أشكال العنف...تحت عنوان... "لن نسكت بعد اليوم"...

غريزة الموت او الشر"

ان العنف تجاه الأطفال يتقنع في اغلب المجتمعات خلف قناع التربية وتحت مقولة" هذا من اجل مصلحتك" الامر الذي يودي الى زرع العنف والشر عند الطفل والذي يحدد الكثير من علاقاته لاحقا مع الاخر والمجتمع عامة

انه من المهم ايضا اعتبار ، في ام الفحم كما هو الحال في كل المجتمع الفلسطيني ، ان عوامل العنف والقتل والهدم والدمار لا يمكن تلخيصها فقط بأسباب سياسية كما اعتدناه دوما

من الواجب ان نذهب معا وبنفس طويل المدى ابعد من ذالك من اجل خوض تحليل اجتماعي واقتصادي وسياسي ونفسي وانساني من اجل فهم "جذور العنف" ومحاولة التغلب على ظواهر العنف في اشكالها المختلفة

مؤسسة العلوم النفسية العربية
معا ... نذهب أبعد
ArabPsyFound